الكتابة : النشأة والتطوُّر

دكتور/ حسان بن عبد الله الغنيمان
أستاذ النحو واللغة المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب – جامعة الملك سعود

ملخص البحث

الكتابة : النشأة والتطوُّر

اخترع الإنسانُ الكتابةَ في عصر متقدِّم من حياته ؛ لحاجته الماسَّةُ إليها، ولم يصل المعاصرون إلى تاريخٍ دقيقٍ لنشأتها ؛ لعدم وجود دليل صريح في هذا .

ويُعَدُّ اختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي كان لها أكبر الأثر في تطوُّر الحياة البشرية، ونحن لا نثمِّن اليومَ أهمية هذا الاختراع نظرا لتقدم العقل البشري، ولأنه صار من القديم المنسيِّ . وهذا البحث يُلقي الضوء على نشأة الكتابة والأطوار التي مرَّت بها .

ومنذ اختراع الكتابة والإنسان يسعى في تطويرها ولا يزال، وقد مرَّت الكتابة بخمسة أطوار، لم تُلبِّ في بداياتها طموحَ الإنسان ؛ فسعى في تطويرها . وهذه الأطوار هي : كتابة الفكرة بصورة، ثم كتابة الكلمة بصورة، ثم الكتابة الرمزية، ثم الكتابة المقطعية _ وكلُّ هذه الأطوار تُعَدُّ بدائية _، ثم الكتابة بالرمز الصوتي . وكان الدافع في تعاقب هذه الأطوار وتغييرها هو حاجة الإنسان للكتابة، وسعيُهُ لتسهيلها وجعلِهَا وافيةً في تقييد خطابه الشفهيِّ كتابيًّا .

ولم يُلْغِ طور الكتابة الأخير مع تطوُّرها كل الأطوار الأولى على الرغم من بدائيَّتها، فقد بقيت الكتابة الصورية لدى الصينيين، وبقيت الكتابة الصورية المقطعية لدى اليابانيين مع أنهم من الشعوب المتقدمة علميا . وبقيت أيضا الكتابة بالفكرة وشيء من الكتابة الرمزية لدى كل الشعوب .

ظهر حديثا طور جديد من الكتابة يُسَمَّى الألفبائية الصوتية، ينادي بعض علماء اللغة المعاصرين بالانتقال بالكتابة إليه ؛ كي يَسْهُلَ تعلُّم اللغة ؛ لأن الكتابة لا تزال قاصرة عن تمثيل اللغة المنطوقة تمثيلا تامًّا، إلا أن الناس أحْجَمُوا منذ القِدَم عن تعديل أبجدياتهم الكتابية ؛ لعدم وفاء تعديل الأبجدية بحاجة النطق الفعلية للُّغة، ولِمَا يستلزمه تعديل الأبجدية من مشاكل اقتصادية وثقافية تؤدي إلى فَصْل الأجيال اللاحقة عن تراث الأجيال السابقة .

المقدمة

عاش الإنسان بدائيا في أوَّل حياته، ثم اخترع ما يلزمه في معيشته من زراعة وبناء ونحوها، ثم تطوَّرت حاجاته باتصاله في الآخرين، فاحتاج إلى تدوين ما يلزمه في حياته من حساب وغيره، ونَقْلِ ذلك للآخرين،ففكَّر باختراع الكتابة،وقد وُفِّق لهذا .

وتُعدُّ الكتابة من أهم وسائل الاتصال الإنساني، فبها تُعْرَفُ أفكار الآخرين، ويُعبِّرُ بها كل فرد عمَّا لديه من معانٍ ومشاعر، وتُسجَّلُ بها الحوادث والوقائع . وإنَّ اختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي غيَّرت مجرى حياة البشر، وكان لها أكبر الأثر في الرقي بالجنس البشري، وهو اختراع لا يقل أهمية عن أعظم الاختراعات والاكتشافات التي قام بها الإنسان(١)، فهي مفخرة العقل البشري، فتاريخُهُ وحضارتُهُ بدأت باختراع الكتابة ؛ لأن الكتابة تتجاوز الزمان والمكان وتمتلك إمكانية البقاء(٢) .

وكان من الطَّبعي ألاَّ تلبِّي الكتابةُ في بداياتها طموح الإنسان ؛ لعدم كمالها ؛ لأن طبيعة أي عِلْمٍ وأي مخترع ألاَّ يكون كاملا في بداياته ؛ ولذا فكَّر الإنسان بتطويرها، وقام بذلك في عدة أطوار إلى أن اكتملت في النهاية .

ونحن لا نثمِّن اليومَ أهمية اختراع الكتابة نظرا لتقدم العقل البشري، وهذا جعل كثيرا من المثقَّفين لا يعرف عنه شيئا ؛ لأنه صار من القديم البائد، وكل قديم يُكتب له النسيان(٣) ؛ لهذا رأيت أن أكتب هذا البحث ليقف المثقفون على نشأة الكتابة ومراحل تطوُّرها ؛ ليدركوا قيمة هذا الاختراع وعظمه، والجهد الذي قدَّمه العلماء في سبيل تيسير الكتابة .

---

(١) ينظر تاريخ الكتابة ليوهانس فريدريش ص ٣٣، وتاريخ الكتابة التاريخية ص ٢٨، والكتابة المسمارية ص ١١، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٤/١٥ .

(٢) ينظر تاريخ الكتابة ص ٣٣ .

(٣) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٤/٧ .

وقد بذلت فيه جهدا كبيرا رغم الصعوبات التي واجهتني، من ندرة المصادر، وعدم دقة بعضها في تحديد الأطوار والتواريخ، وهأنذا أقدمه للقارئ الكريم راجيا أن ينال استحسانه، ويجد مكانته في المكتبة العربية .

كتبه

د/ حسان بن عبد الله الغنيمان

تُعَرَّفُ الكتابةُ بأنها رسومٌ وأشكالٌ حِرَفِيَّة تدلُّ على الكلمات المسموعة الدَّالَّة على ما في النَّفس من أفكار(١) .

وتُعدُّ الكتابة من أهم المعارف التي اكتسبها الإنسان وزاوَلَهَا ؛ لِمَا لها من أثر كبير في تطوُّر الجنس البشري، فأثرها يفوق أثر أي مُنْجَزٍ آخر(٢) ؛ ولذا عدَّها باحثون البداية الحقيقية للحضارة الإنسانية برُمَّتها ؛ لأن الكتابة تتجاوز الزمان والمكان وتمتلك إمكانية البقاء مدة طويلة(٣) .

وتاريخ نشوء الكتابة يعود إلى عصور متقدِّمة من حياة الإنسان ؛ نظرا لحاجته الكبيرة لها، إلا أنه يصعب الوقوف على تاريخٍ دقيق لنشأتها ؛ لعدم ورود دليل نقليٍّ صريح فيه، ولمرور زمن طويل عليه ضاعت معه كثير من الآثار التي قد تُساعد في الوقوف عليه، وما وصل إلينا من آثار كتابية ونقوش غير كافٍ في إبداء رأي مقبول في تاريخ نشأة الكتابة(٤) .

وللباحثين رأيان في نشأة الكتابة :

الرأي الأول : أن الكتابة توقيفية، علَّمها اللهُ بالقلم أحدَ أنبيائه – عليهم السلام – أو غيرَهُم من البشر(٥) ؛ استدلالا بظاهِر قوله عز وجل : { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }(٦)، فالآيات تدل على أن نعمة التعليم أكبر نعمة

(١) مقدمة ابن خلدون ٨٧٩/٢، وينظر صبح الأعشى ٨١/١ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازي ٣٧٣/٢١، وصبح الأعشى ٦٣/١ .

(٣) ينظر تاريخ الكتابة ليوهانس فريدريش ص ٣٣، وتاريخ الكتابة التاريخية ص ٢٨، والكتابة المسمارية ص ١١، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٤/١٥ .

(٤) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٤/١٥، والكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية ص١٩ .

(٥) ينظر العقد الفريد ٢٣٩/٤، وأدب الكتاب ص ٢٨، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٠، وصبح الأعشى ٩/٣ وما بعدها، والمزهر ٣٤١/٢ .

(٦) سورة العلق، الآيات من ٣ إلى ٥ .

وبخاصة الكتابة بالقلم ؛ لما فيها من المنافع العظيمة، كتخليد العلوم ومصالح الدين والدنيا[١] ؛ مما قد يوحي بأن الكتابة إلهام من الله .

ومدار المسألة على تعيين مفعولَي الفعل " عَلَّمَ" المحذوفَيْنِ في الآية محل الاستدلال { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ }، أما المفعول الثاني فقد قُدِّر بـ"الخط"، أي : الكتابة[٢] ؛ لظهوره في قراءة عبد الله بن الزبير – رضي الله عنهما – : { الَّذِي عَلَّمَ الخَطَّ بِالْقَلَمِ }[٣]، أما المفعول الأول فاختُلِفَ فيه[٤]، فقيل : آدم[٥]، وقيل : شيث بن آدم، وقيل : إدريس[٦] – عليهم السلام –، وقيل : كُلُّ مَنْ كَتَبَ بالقلم ؛ لأنه ما عَلِمَ إلا بتعليم الله له . وهذا هو الراجح هنا[٧] ؛ لذكره مفعولًا أولَّ للفعل " عَلَّمَ" في الآية التي تليها { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } الواقعة بدل اشتمال منها[٨] ؛ ولعدم ورود دليل صحيح يؤيِّد الأقوال الأولى، لكنَّ ترجيح القول الأخير من هذه الأقوال لا يعني التسليم بأن الله علَّم الإنسان الكتابة إلهاما ؛ لأن الآية لا تدلُّ صراحة على هذا ؛ لأنه لا يمتنع أن تكون دالَّةً على أن الله علَّم الإنسان الكتابة عن طريق إعمال الفكر وتيسير الوسائل له بالتدريج كما يراه أصحاب الرأي الآخر .

الرأي الثاني : أن الكتابة اختراعٌ بشريٌّ فكَّر فيه الإنسان واستعمله أولاً في صورة بدائية، ثم مع مرور الزمن طوَّره حتى وصل إلى الصورة التي عليها الآن، وهذا

---

(١) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٩٦/٢، والكشاف ٧٧٦/٤ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازي ٢١٨/٣٢، والفريد في إعراب القران المجيد ٤٢٩/٦، والبحر المحيط ٤١٥/٢١ .

(٣) تنظر هذه القراءة في شواذ ابن خالويه ص ١٧٦، والكشاف ٧٧٧/٤، والبحر المحيط ٤١٥/٢١ .

(٤) ينظر النكت والعيون للماوردي ٣٠٥/٦، والبحر المحيط ٤١٦/٢١ .

(٥) ورد هذا القول في رواية إسرائيلية عن كعب الأحبار . ينظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٦٠، والإتقان في علوم القرآن ١٦٧/٤ .

(٦) روى ابنُ حبان في صحيحه ٧٧/٢ حديثا فيه أن أول مَنْ خَطَّ بالقلم إدريس، إلا أن إسناده ضعيفٌ جدا . وورد في الحديث نفسه أن شيث بن آدم – عليهما السلام – أُنزل عليه خمسون صحيفة . وهذا يدلُّ على أنه كان يعرف الكتابة قبل إنزال الصُّحف، وإلا لَمَا عرف ما فيها .

(٧) ينظر البحر المحيط ٤١٦/٢١ .

(٨) ينظر مفاتيح الغيب للرازي ٢١٩/٣٢، والفريد في إعراب القران المجيد ٤٢٩/٦ .

الرأي قائم على الدراسات الحديثة المعتمِدَة على النقوش الأثرية التي تُعَدُّ أقوى دليل، وهذا ما يدعونا إلى الأخذ بهذا الرأي وطرح الرأي الآخر ؛ لعدم اعتماده على دليل علمي يؤيده .

والكتابة مثلُ أيِّ مخترَعٍ، يَعْتَورُهُ النقصُ في بداياته، ثم يتطوَّر شيئا فشيئا إلى أن يكتمل في نهايته، فهو من بدايته إلى نهايته يمرُّ بأطوار ؛ ولذا فالكتابة مرَّت بأطوار، وهي[1] :

الطَّوْر الأول : طَوْرُ الكتابة بالفكرة Ideography، أي : نَقْلُ الفكرة عن طريق صورة، فالإنسان قديما ظهرت لديه الحاجة لنقل خطابه إلى مسافات بعيدة، لكن حَجْم الخطابِ وصعوبته كان عِبْئًا على ذاكرةِ ناقلِه، وعندما رأى الإنسان سهولة رَسْمِ ما يراه، ووَجَدَ أن رُسُومَهُ قد تُعطِي فكرةً ترتبط بدلالة هذا الرسم، استخدم الصور للتعبير عن أفكاره، كاستعمال صورةٍ للزواج، وصورةٍ لرحلة صَيْدٍ ونحوهما . وهي ما يُشبه علامات المرور المستعملة في عصرنا[2] .

واشتمل هذا الطَّوْر على صور متعددة بتعدُّد المدلولات، كما هو الحال في لغة الهنود الْحُمْر : سكان أمريكا الأصليِّين . وقد مكَّنت هذه الطريقة من الاتصال بين الشعوب التي تتحدَّث بلغاتٍ مختلفة ؛ لأنها كتابة تتميَّز بأن قراءتها في متناول أي إنسان ؛ لأن صورة الشيء تُفْصِحُ عن مدلوله العام لا عن صوته ؛ لأن الصورة فيها ليست رمزا لحرفٍ ولا لكلمةٍ ولا لمقطعٍ . وهذا النوع من الكتابة لا يُعَدُّ كتابة بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما هو

(١) ينظر تاريخ الكتابة ص ٣٦ وما بعدها، والكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية ص ٢٧ وما بعدها، والحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة ص ٤ و ٣٥ وما بعدها، والكتابة في العراق القديم ص ١٢٤، والألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني ص ٣، وتاريخ الكتابة التاريخية ص ٢٥، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٤/١٥ .

(٢) ينظر تاريخ الكتابة ص ٣٤ وما بعدها، والكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية ص_٢٧، وحضارة الكتابة ص ١١، والحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة ص ١٤، والكتابة المسمارية ص ٣٥ وما بعدها، واللغة لفندريس ص ٣٨٥ .

شيء أوَّليٌّ سابق على الكتابة ؛ ولذا سمَّى بعض الباحثين هذا الطور بطور ما قبل الكتابة[١] . ويُسَمَّى هذا الطَّوْرُ الكتابةَ بالموضوعات، أو الكتابةَ بالعبارة[٢] .

وهذا الطور قديم جدا يعود إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد، ويُرجعه بعض الباحثين إلى ما قبل هذا[٣] .

الطور الثاني : الطَّوْر التصويريّ Pictography، وبدأت هذا الطور عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد تقريبا[٤]، ولا توجد حدودٌ واضحةٌ بين هذا الطور والطور الذي قبله، أي : طور نقل الفكرة بصورة[٥] .

والطَّور التصويريّ هو طَوْرُ التعبير بصورة خاصة عن كلمة مفردة، كالتعبير عن سَمَكَةٍ مثلاً برَسْمِ صورةٍ لها، والتعبير عن ثور برسم صورة له، والتعبير عن القمح أو الشعير برسم صورة له ... وهكذا[٦] . وكتابةُ الطَّور التصويريّ تُعَدُّ خُطْوَةً متقدِّمَةً في الكتابة ؛ إذ هي تُثبت القولَ كلمةً كلمةً .

واختُرعت هذه الكتابة في بلاد الرافدَيْن، وتُسَمَّى عندهم بالسَّوْمَرِيَّة، وفي شرق آسيا لدى الصينيِّين، وفي مصر[٧]، وسُمِّيت لديهم في البداية بالرموز المقدَّسة، ثم سُمِّيَت بالرموز الهيروغليفية، وأخيرا سُمِّيَت بالهيروغليفية Hieroglyfhs، ومعاني

---

(١) ينظر تاريخ الكتابة ص ٣٤ و ٣٦ و ٣٩، وحضارة الكتابة ص ١١ .

(٢) ينظر تاريخ الكتابة ص ٣٣ و ٣٤ و ٣٦ .

(٣) ينظر الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية ص ٢٨ .

(٤) ينظر تاريخ الكِتَاب ص ١٠ و ١١، والكتابة المسمارية ص ٢٥ و ٣٤، والألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني ص ٣، ودراسات في علم الآثار واللغات القديمة ١٧/١ و ٢٧٢ .

(٥) ينظر تاريخ الكتابة ص ٦٤، واللغة لفندريس ص ٣٩٠ .

(٦) ينظر الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية ص ٢٨، وحضارة الكتابة ص ١٣، والكتابة في العراق القديم ص ١٢٣ و ١٢٤، والحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة ص ٢٧، وتاريخ اللغات السامية ص ٣٥ .

(٧) ينظر الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية ص ٢٧ و ٤١ و ٤٥ و ٦٠، والكتابة في العراق القديم ص ١٢٣، وتاريخ الكِتَاب ص ١٠ و ١١، والكتابة المسمارية ص ٢٦ و ٣١ وما بعدها، ودراسات في علم الآثار واللغات القديمة ٢٦٥/١، واللغة لفندريس ص ٣٩١، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٦٩ .

هذه الأسماء واحدة[١] . ولم تستمر الهيروغليفية كتابةً صوريَّة، بل تحوَّلت في القرن السادس عشر قبل الميلاد إلى كتابة مقطعية[٢] . وهذا راجع إلى قصور هذه الكتابة قُصُورًا واضحًا[٣] .

كتابة صورية هيروغليفية

كتابة صورية سومرية

(١) ينظر تَعلَّم الهيروغليفية ص ١٢، وتاريخ الكتابة ص ٥٧، وحضارة الكتابة ص ١٥ .

(٢) ينظر تاريخ الكتابة ص ٢٧ و ٢٨ و ٥٧ و ٥٩ و ٦٨، وحضارة الكتابة ص ١٥، وأسس علم اللغة العربية ص ١٦٢، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٦/١٥ .

(٣) ينظر اللغة لفندريس ص ٣٩٣ .

وتستلزم الكتابة الصورية استخدام آلاف الصور(١)، وهذا يؤدي إلى صعوبتها وقلَّة انتشارها، إضافة إلى أن الكتابة التصويرية وإن عبَّرت نوعا ما عن مشاعر الكاتب إلا أنها تظل عاجزة عن التعبير عن الأمور الروحية وعن الألفاظ المعنوية، وعن الأمور الحسابية وغير ذلك ؛ لهذا لم يقتنع الإنسان بها، بل أخذ يشحذ ذهنه لإيجاد طريقة أخرى مختصرة وسهلة، ولها قابلية على رسم المعاني والإحساس(٢) .

الطور الثالث : الطَّور الرمزيّ الصُّوريّ Ideograms، ففي هذا الطور اقتضت حاجة التواصل بين الناس أن تتحوَّل الصور من معناها الحقيقي إلى معنى رمزي، وصار الشخص يُعَبِّر عن أفكاره بطريقةٍ غير مباشرة، وذلك باستخدام صُوَرٍ تَرْمِزُ إلى الكلمة التي يُريد نَقْلَهَا، فرَسْمُ الشمس – بَدَلَ أن يَدُلَّ على الشمس فقط – أصبح يَدُلُّ على : يوم، ونهار، ويُضيء، ويُشْرِق، وعلى الضَّوء، وعلى الزمن . وأصبح التعبير عن ثَوْرٍ برسم صورةٍ لرأسه مع قرنَيْه بدلاً من رسم صورته كاملة، وأصبح التعبير عن قمحٍ برسم سُنْبُلَةٍ بدلا من رسم قمح . وأصبحت صورة المحراث يُعبَّر بها عن : المحراث، والحِرَاثة، والفعل يَحْرُثُ، والفلاَّح . ومن الكتابة الرمزية المعاصِرَةِ الرموزُ الدالة على أصحاب المهن المستعملة في عصرنا الحالي(٣) .

وصَاحَبَ هذا النوعَ من الكتابة ازدواجيَّةُ الرَّسْمِ ؛ للدلالة على التعدد والكثرة، فللتعبير عن قطيعٍ يتكوَّن من خمس شِيَاهٍ يُرسَمُ علامةٌ تُمثِّل العددَ خمسةً وعلامةٌ واحدةٌ تُمثِّل الشاةَ بدلاً من رَسْمِ صورةٍ تحتوي على خمس شِيَاهٍ، وللتعبير عن التَّوْأَم يُرسَمُ طفلان، وللتعبير عن الغابة يُرسم شجرتان(٤) ... وهكذا .

---

(١) ينظر تاريخ الكتابة ص ٧٣، وحضارة الكتابة ص ١٣ .

(٢) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٥/١٥، والحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة ص ٥٠، والكتابة في العراق القديم ص ١٢٦، والكتابة المسمارية ص ٤٩، واللغة لفندريس ص ٣٩١ .

(٣) ينظر الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية ص_٢٨ و ٣١، والكتابة في العراق القديم ص ١٢٦، والألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني ص ٤، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٠ .

(٤) ينظر تاريخ الكتابة ص ٤٩ وما بعدها، و ٢١٦، والكتابة في الشرق الأدنى القديم ص ٣٠ .

وكان يُرمَز للأفعال في الطَّور الرمزي الصوريّ بضروبٍ من الأساليب البارعة، فصورةُ القدمين تعني الذَّهَاب، وصورةُ فَمِ الرجل مع إضافة العلامة الدالة على الخبز أو الماء تعني الأكل أو الشُّرْب ... وهكذا . وكان يُرمَز للمعاني بما يرادفها من ألفاظ المحسوسات، كتعبير أهل المكسيك والمصريين القدماء عن الصلابة بصورة الحجر، وعن الظلام أو الليل بصورة القمر .... وهكذا(١) .

وأشهر من استخدم هذا النوع من الكتابة السَّوْمَرِيُّون القدماء الذين كانوا يسكنون بلاد الرافدين، وذلك في الطور الثاني من كتابتهم . ودَفَعَهُم إلى هذا صعوبةُ كتابة الصور الدقيقة، وقصورُ الصورة عن التعبير عن كل حاجات الإنسان، ونزوعُهم نحو التجريد(٢) .

وكان ابتداء استخدام هذا النوع من الكتابة في القرن الثلاثين قبل الميلاد، واستمر استخدامها إلى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد(٣) .

ويدخل في الطَّور الرمزيّ الصُّوريِّ استخدام الرموز للدلالة على كلماتٍ، كالكتابة اليابانية والصينية الحديثة(٤) .

ونظرا لكثرة المعاني والذوات عِيبَ على هذا النوع من الكتابة كثرةُ الرموز ؛ إذ تبلغ الرموز في الكتابة الصينية أكثر من أربعين ألف رمز، إلا أن الشخص الذي يعرف ثلاثة آلاف رمز منها يستطيع قراءةَ الصحف الصينية والقصص الحديثة(٥) .

---

(١) ينظر تاريخ الكتابة ص ٤٩ و٥٠ و ٧٤، والكتابة في الشرق الأدنى القديم ص ٣١ و ٦١ .

(٢) ينظر الكتابة في العراق القديم ص ١٢٦، والكتابة في الشرق الأدنى القديم ص ٣١، وقواعد اللغة السومرية ص ١٧ .

(٣) لم أقف على من حدَّد تاريخ هذا المرحلة من الكتابة، وما ذكرته هو استنتاج من تحديد نهاية المرحلة التي قبلها بسنة ٣٠٠٠ ق.م وابتداء المرحلة التي بعدها بسنة ٢٨٠٠ ق.م ؛ طبقا للنقوش السومريَّة . ينظر دراسة في علم الآثار واللغات القديمة ٢٧٢/١ .

(٤) ينظر تاريخ الكتابة ص ٢١٣ وما بعدها، والحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة ص ٤٩ .

(٥) ينظر الألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني ص ٤، والحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة ص ٥٠، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٠ .

وعِيبَ عليها أيضا أنَّ كتابتها تستنزف مجهودا كبيرا ووقتا طويلا، كما أن تعلُّمها وتعليمها يحتاج إلى جهد شاق وزمن طويل، فالصينيون يقضون زهرة شبابهم في تعلُّمها في المدارس دون أن يُتقنوها(١) .

ومع كثرة العلامات الرمزية أصبحت دلالتها غير دقيقة ؛ ولذا استَحْدَثَ فيها السومريُّون علامات تقييديَّة ؛ لِتُقَيِّد الرمز بالدلالة على معنى محدَّد، تُكتب عادةً قبل الرمز، ونادرا بعده، ولا تُقرأ، فمثلا صورة المحراث إذا رُسِمَ قبلها صورةَ خَشَبٍ أصبحت دالَّة على المحراث، وإذا رُسِمَ قبلها صورةَ رَجُلٍ أصبحت دالَّة على الفلاَّح ... وهكذا(٢) .

وقد بلغت العلامات التقييديَّة المعروفة حتى الآن في النصوص السومرية خمسا وعشرين علامة، منها إحدى وعشرون علامة تَرِدُ قبل الأسماء، وأربعُ علامات تَرِدُ بعد الأسماء، إضافة إلى وجود أربع علامات أخرى تَرِدُ بعد الأعداد لتُعطِيَ معنى "فقط"(٣) .

ولا تزال علامات التقييد مستعملة حتى عصرنا الحاضر، فالحرف الكبير في بداية الكلمة في الكتابة اللاتينيَّة دليل على أنه عَلَمٌ، وفي الألمانية دليل على أنه اسمٌ موصوف(٤) .

والكتابة في الطَّور الرمزيِّ الصُّوريِّ تكفي فقط لتدوين الحاجات الاجتماعية الأوليَّة، فلا يُمكن أن يُكتب بها نصوصٌ أدبيَّةٌ أو تاريخيَّةٌ، كما لا يُمكن أن يُكتب بها أسماءُ الأعلامِ أو أسماءُ المدنِ ؛ لأنها لا تدلُّ على رموزٍ صوتيَّةٍ، كذلك لا يُمكن أن تُحيط بجميع ما يخطر في الذهن ويختلج في النفس من معانٍ وأفكار وإن كثرت صُوَرُهُ

(١) ينظر علم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٠ .

(٢) ينظر قواعد اللغة السومرية ص ١٩، وتاريخ الكتابة ص ٧٨ و ٧٩، ودراسة في علم الآثار واللغات القديمة ١٨/٢ .

(٣) ينظر دراسة في علم الآثار واللغات القديمة ١٨/٢ .

(٤) ينظر قواعد اللغة السومرية ص ١٩، وتاريخ الكتابة ص ٧٨ و ٧٩، ودراسة في علم الآثار واللغات القديمة ١٨/٢ .

وتعدَّدت رموزُهُ، وهذا جَعَلَ الإنسان يُفَكِّر في استحداث كتابةٍ تَكُونُ أسهلَ وأسرعَ، وتُلبِّي كل احتياجاته[١] .

الطور الرابع : الطَّور المقْطَعيِّ Syllabics، ففي هذا الطور أصبحت الصورة تعني مقطعًا صوتيًّا ولا تعني الصورةَ ذاتها[٢] . وبدأ هذا الطور في حدود سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد على يد السومريِّين[٣] . ومن أمثلتها تعبيرُ السومريِّين عن السَّهْم وعن الحياة بصورة السَّهْم ؛ لأن كليهما يُلفظان في لغتهم : "ti"، وتعبيرُهُم عن الفَخِذ وعن الغَضَب بصورة الفَخِذ ؛ لأنهما يُلفظان جميعا في لغتهم : "ib"[٤] . ونحو كلمة "lugal"، ومعناها : مَلِكٌ، وهي تتألَّف من مقطعين : الأول : "lu"، بمعنى : رَجُل، والثاني : "gal" بمعنى : عظيم، فمعناها مركَّبَةً : الرجل العظيم، والمقصود به الْمَلِك[٥] .

وقد ساعد السومريِّين في اختراع الكتابة المقطعية أن مُعظَمَ الكلمات في اللغة السومرية تتألف من مقطع واحد[٦] ؛ ولذا لم يكن صعبًا عليهم تكوين نظام مقطعي من ٥٢٢ رمزا صوتيًّا[٧] .

ومما ينبغي لنا معرفته أن الكتابة في هذا الطور لم تكن مقطعيَّة خالصة، وإنما هي خليطٌ يجمع بين الكتابة بالصورة والكتابة المقطعية ؛ لأن أهل هذه الكتابة بعد اختراعها لم يعمدوا إلى تجزئة كلمات اللغة كلها إلى مقاطع ؛ لأن نشوء الكتابة

(١) ينظر تاريخ الكتابة ص ٧٥، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٠ .

(٢) ينظر تاريخ الكتابة ص ٧٥، والكتابة في الشرق الأدنى القديم ص ٣٤، والحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة ص ٨٣، وقواعد اللغة السومرية ص ١٨ .

(٣) ينظر دراسة في علم الآثار واللغات القديمة ٢٧٢/١ .

(٤) ينظر تاريخ الكتابة ص ٧٦، وقواعد اللغة السومرية ص ١٨ .

(٥) ينظر اللغة السومرية ١٠/١ .

(٦) ينظر تاريخ الكتابة ص ٧٦، والكتابة في العراق القديم ص ١٢٩، ودراسة في علم الآثار واللغات القديمة ٩/٢ .

(٧) ينظر دراسة في علم الآثار واللغات القديمة ٢٧٢/١، وقواعد اللغة السومرية ص ١٣ .

المقطعية كان لحاجات خاصة، من أهمها كتابة أسماء الأعلام والأماكن . وهذا ما هو موجود في الكتابة المسمارية واليابانية التي تستخدم الرموز المقطعية اليابانية والرموز الصينية الدالة على كلمات كاملة(١) .

ومن أشهر الكتابات المقطعية قديما الكتابةُ السومريَّة في طورها الثالث، والكتابةُ البابليَّة والآشوريَّة في طورهما الثاني، وموطنها جميعا العراق . وكانت كتابتها كلها بالخط المسماريِّ، وهو خطٌّ سومريُّ الأصل(٢) . ومن الكتابات المقطعية التي ما تزال حيَّةً ومستعملة إلى الآن الكتابةُ اليابانية(٣) .

ويُعدُّ الطَّورُ المقْطَعيُّ هو البدايةَ الحقيقيَّةَ في تهجئة الكلمات ؛ إذ تُعَدُّ الكتابةُ المقطعية تطوُّرًا كبيرًا في تاريخ الكتابة، فبها استطاع الإنسان أن يُحلِّل ألفاظ اللغة إلى مقاطع، وأن يستعمل الصورة للتعبير عن المقطع الصوتي، فيَكتُبَ أسماءَ الأشخاص والأماكن ونحوها، وأن يُعبِّر عن أحاسيسه وعن الأشياء المعنوية . وكان اختراعها خُطْوَةً واسعةً إلى الأمام نحو تسهيل نظام الكتابة، إلا أن نجاح استخدامها لا يتوقَّف على مدى إتقانها، وإنما هو مرتبط إلى درجة كبيرة بالنظام الصوتي للغة، التي يُشترط فيها تعاقبُ الصوامت والصوائت فيها بانتظام، كاللغة اليابانية ؛ لذا فتدوين اللغة اليونانية أو العربية ونحوهما بالكتابة المقطعية ليس بالأمر السهل(٤) .

يضاف إلى هذا أن الكتابة المقطعية تقتضي استخدام مئات الرموز للتعبير عن المقاطع الصوتية التي تتألَّف منها ألفاظ اللغة، وهذا يخلُقُ عقبة في طريق استخدام هذا النوع من الكتابة(٥) . فضلا عن كونها شديدة الصعوبة، فالقِيَمُ الرمزيَّة للعلامات لم

(١) ينظر تاريخ الكتابة ص ٥٣ و ٧٧ و ٧٩ و ٢٢٨ .

(٢) ينظر أسس علم اللغة العربية ص ١٥٦، وحضارة الكتابة ص ١٣، واللغة السومرية ٩/١، والكتابة في الشرق الأدنى القديم ص ٣٤ .

(٣) ينظر تاريخ الكتابة ص ٢٢٨ .

(٤) ينظر تاريخ الكتابة ص ٥٣، والكتابة في الشرق الأدنى القديم ص ٣٤، واللغة لفندريس ص ٣٩٨ .

(٥) ينظر تاريخ الكتابة ص ١٨ و ٢١ و ٧٧، وحضارة الكتابة ص ١٣، ودراسة في علم الآثار واللغات القديمة ٨/٢، وأسس علم اللغة العربية ص ١٦٢ .

تختلف تماماً، فكان كثيرٌ من العلامات يُفَسَّرُ إما على أساسٍ رمزيٍّ، وإما على أساس صوتيٍّ حَسَبَ السياق . هذا إلى جانب أن معظم الرموز ــ وهي وافرة الكثرة ــ تتألَّف من علاماتٍ لكلٍّ منها أكثر من قيمة صوتية، فالرسم الدال على "ساقٍ" يُقرأ gin، بمعنى : سَارَ، أو gub، بمعنى : وَقَفَ، أو tum، بمعنى : جَلَبَ ؛ لأن الساق يدلُّ عليها كلها . ومن هنا كانت الحاجة ضروريَّةً لخطوة أخرى توصل الكتابة إلى استخدام رمزٍ واحد لكل صوت لغوي واحد(١) .

الطور الخامس : طور الرمز الصوتي، أو طور الكتابة الأبجدية Alphabet، وهو طور يقوم على تخصيص رمزٍ واحدٍ للصوت الواحد، أي : أن الرموز المستخدمة في الكتابة تَكُونُ بعدَدٍ مُسَاوٍ للأصوات التي تتألَّف منها اللغة . وبهذا النوع من الكتابة انخفضت الرموز المستخدمة في الكتابة إلى ما يقارب الثلاثين، تزيد قليلا أو تنقص قليلا بحسب اللغة التي تَستخدم الكتابة(٢) . والكتابة بالرمز الصوتي هي المستخدمة في أغلب اللغات في العصر الحاضر .

وأوَّل مَنِ اخْترع الأبجدية هم الأُوجارِيتِيُّون(٣)، وتعود أبجديتهم إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد(٤) . ثم أخذها عنهم الفينيقيُّون(٥)، وطوَّروها ثم

(١) ينظر تاريخ الكتابة ص ٧٦ _ ٧٩، واللغة لفندريس ص ٣٩٥، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٥/١٥ .

(٢) ينظر مدخل إلى علم اللغة ص ١٧١، وأسس علم اللغة العربية ص ١٦٢ .

(٣) ينظر أسس علم اللغة العربية ص ١٦٢ و ١٦٣، والأوجاريتيُّون والفينيقيُّون : مدخل تاريخي ص ١٤، وتاريخ الكتابة التاريخية ص ٢٧، ودراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ص ٥٠ .
والأُوجارِيتِيُّون قومٌ أسَّسوا مملكتهم في منطقة شمال بلاد الشام، وجعلوا عاصمتهم مدينة أُوجارِيت الساحلية (Ugarit) في منطقة رأس شَمَرَا الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، على بُعْدِ ١٥ كم شمال مدينة اللاذقية . امتهنوا التجارة . ودامت مملكتهم من عام ٢٣٠٠ إلى ١١٨٥ ق.م تقريبا . ينظر الأوجاريتيُّون والفينيقيُّون : مدخل تاريخي ص ٣، وملاحم وأساطير من أوغاريت ص ١٥، والكتابات واللغات القديمة ص ١١ .

(٤) ينظر دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ص ٥٠، والأوجاريتيون والفينيقيون : مدخل تاريخي ص ١٣ و ١٨، والكتابات واللغات القديمة ص ١٥، وحضارة الكتابة ص ١٩ .

(٥) الفينيقيُّون هم سكان السواحل الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط، وكانوا أصحاب تجارة عظيمة، امتدت من الشام إلى المغرب وإلى أجزاء من أوروبا، كاليونان، وقبرص، وإيطاليا، وإسبانيا، وجنوب فرنسا، ودامت سيطرتهم التجارية على البحر الأبيض المتوسط من القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى سقوط مدينة قرطاج الواقعة في تونس حاليا=

نشروها[١]، فكان لهم الفضل في تعليم الأبجدية لأغلب الأمم، ومما يدلُّ على هذا اتفاق أسماء الحروف في الأبجديات الساميَّة والغربية مع اختلاف لغات هذه الأبجديات، واتفاقها في ترتيب حروفها، فكلها تبتدئ بحرف واحد هو الهمزة، ويَليها الباء . وهذا التشابه يشير إلى وحدة الأصل، وإلى أن هذه الأبجديات قد تفرَّعت كلها من شجرة واحدة[٢] .

وهذا التطور في الكتابة قد نقلها إلى طَوْرٍ تميَّز بأمرين معا[٣] :

الأول : سهولة الاستخدام ؛ مما جعل المعرفة شيئا متاحا لعدد كبير من البشر، بعد أن كانت في الحضارات الأقدم وقفا على نُخبة من كبار رجال الدولة .

الثاني : الدِّقة في تمثيل أصوات اللغة المكتوبة إلى حدٍّ ما .

ونرى بعد معرفتنا أطوار الكتابة مدى الجهد الذي بذله العلماء على مدار عدة قرونٍ في سبيل الرُّقِيِّ بالكتابة، ومدى التطوُّر الذي حدث فيها، وجَعَلَهَا سَهْلَةَ الاستخدامِ، ودقيقةً إلى حدٍّ ما في تمثيل أصوات اللغة، لكن ومع هذا نرى الكتابات الأبجدية لم تصل إلى الكمال الذي يجعلها تُحقِّق الغاية من اختراعها، وهي المماثلة التامة بين اللغة المنطوقة والمكتوبة[٤]، وهذا مما يُعيق تعلُّم اللغة . فعلى سبيل المثال نجد في اللغة العربية حروفا تُكتب ولا تُنطق، نحو : ذهبوا، وعَمْرٍو، وأولئك، وأولات وأمثالها، كما نجد حروفا تُنطق ولا تُكتب، مثل : ذلك، ولكن، وإله، والَّذي، والَّذين ونحوها[٥] .

=بيد الرومان سنة ١٤٦ م . ينظر معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٧٨، والأوجاريتيون والفينيقيون : مدخل تاريخي ص ١٩ وما بعدها، والكتابات واللغات القديمة ص ٣٦ وما بعدها .

(١) ينظر أسس علم اللغة العربية ص ١٦٥ و ١٦٦، والأوجاريتيون والفينيقيون : مدخل تاريخي ص ٣٨، وتاريخ الكتابة ص ٣٠ و ١٢٣، وتاريخ الكِتَاب ٢٨/١، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٥٢/١٥ .

(٢) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٥٠/١٥، وأسس علم اللغة العربية ص ١٦٣ .

(٣) ينظر أسس علم اللغة العربية ص ١٦٣ .

(٤) ينظر مقدمة تاريخ الكتابة ص ٣١، وعلم الأصوات لكمال بشر ص ٦٣١، ودراسة الصوت اللغوي ص ٧٣، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٩٨، والألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني ص ١١، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٣، وفقه اللغة له ص ١٩٨ .

(٥) ينظر أدب الكاتب ص ٢٤٥، وأدب الكُتَّاب للصولي ص ٢٤٦ و ٢٥١، وعمدة الكُتَّاب ص ١٧٢ .

كذلك نجد في اللغة الإنجليزية كثيرا من الكلمات التي لا يتوافق نطقها مع كتابتها، إما لوجود حروفٍ فيها تُكتب ولا تُنطق، نحو : high, night , light, write , right Know , Neighbor , ونحوها، ومثلها في اللغة الفرنسية نحو : ils portaient, loup ونحوهما .

وإما لعدم اتفاق القيمة الصوتية المنسوبة للحرف الواحد في كل كلمة تَرِدُ فيها، فالقيمة الصوتية المنسوبة لـ"a" في "gatte" تختلف عنها في كلٍّ من : fat, any, fall, father، وكذلك القيمة الصوتية المنسوبة لـ"o" في "moon" لا تتوافق معها في "Women"(١)، وكذلك القيمة الصوتية المنسوبة لـ"u" في "Juice" لا تتفق معها في "University"(٢) . وهذا الأمر ينطبق على أغلب اللغات اللاتينية(٣) .

أيضا نجد في الإنجليزية أن الصوت الواحد يُمَثَّلُ له بأكثر من رمز، مثل : zoo و as، ونجد أيضا التمثيل برمزٍ واحدٍ لأكثر من صوتٍ، نحو : city و cat، كذلك نجد الصوت الواحد يُمثَّل له بمجموعة رمزية، مثل : th و ph، أيضا وجدنا مجموعة صوتية يُمثَّل لها برمز واحد، نحو : x(٤) .

ويعود السبب في عدم المماثلة التامة بين اللغة المنطوقة والمكتوبة إلى أن اللغة المنطوقة تتطوَّر سريعا، ويختلف نُطقُها في البيئات المتعدِّدَة المنتمية إلى لغة واحدة . أما اللغة المكتوبة فهي ثابتة ؛ مما يجعلها عاجزة عن ملاحقة تطوُّر اللغة المنطوقة، وغير قادرة على موافقة التغييرات في البيئات المختلفة للُّغة(٥) .

ولم تخضع الأبجديات الكتابية للتغيير كي تجاريَ اللغة المنطوقة في تطوُّرها وتراعيَهَا في اختلاف النطق في بيئاتها المتعددة لأن الناس منذ القِدَم يُحْجِمُون عن تغيير

(١) ينظر مقدمة تاريخ الكتابة ص ٣١، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٩٨ .

(٢) ينظر علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٥١، وعلم الأصوات ص ٦٣١ .

(٣) ينظر تاريخ الكتابة ص ٨٣، واللغة لفندريس ص ٤٠٩، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٩٨، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٣، ودراسات في فقه اللغة ص ٢٩٠ .

(٤) ينظر مقدمة تاريخ الكتابة ص ٣١، ودراسة الصوت اللغوي ص ٧٣، وعلم الأصوات ص ٦٣١ .

(٥) ينظر علم الأصوات ص ٦٣٢، وتاريخ الكتابة ص ٣١ و ٨٣، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٥ .

أبجدياتهم الكتابية بسبب عدم وفاء تعديل الأبجدية الكتابية بحاجةِ النُّطْقِ الفعليــة للُّغــة، ولأن تعديل الأبجدية الكتابية يَفْصِلُ الأجيال اللاحقة عن تراث الأجيال السابقة، فــضلاً عمَّا يستلزمه التغيير من أموال طائلة قد تُسبِّب مشاكل اقتصادية هُمْ في غنى عنها(١) .

وعدم التماثل بين اللغة المنطوقة والمكتوبة يَقِفُ عائقا كبيرا أمام تعلُّم اللغة، سواء كان ممن يجيدون الحديث بهذه اللغات كالأطفال، أم ممن يريدون أن يتعلَّموا هذه اللغات ممن ليسوا من أهلها ؛ إذ يلزمهم أن يتعلَّموا طريقة كتابة كل كلمــة بعــد أن يتعلَّمــوا طريقة نُطْقِهَا، وهذا يخلُقُ حاجزا قويًّا أمام تعلُّم اللغات ؛ لذا رأى بعض علماء اللغــة أن يُعاد النظر في طريقة كتابة هذه اللغات، فتُكتب كل كلمة وفق ما تُنطــق بــه، كالكتابــة العروضية تقريبا(٢)، وهي ما يُسمَّى بالألفبائية الصوتية(٣) .

وفكرة الكتابة بالألفبائية الصوتية نادى بها علماء الصوتيَّات المحدَثون، وكان مــن أبرزهم العالم الفرنسي باول إدوارد باسي (Paul Passy) (١٩٤٠ م)، الذي أسَّس مــع عدد من العلماء الأوربيين سنة ١٨٨٦ م ما أصبح يُعرف الآن بالجمعية الــصوتية الدوليــة (International Phonetic Association)، المعروفة اختصارا بـــــ(IPA)(٤) . وقد رأت هذه الجمعية توسيع هذه الفكرة بضرورة الاتفاق على ألفبائية موحَّــدة يُمكــن الاعتماد عليها في كتابة اللغات واللهجات العالمية . وقد اختارت الجمعية فــي مــؤتمرٍ عالميٍّ عُقد في أغسطس سنة ١٨٨٨ م ألفبائيَّةً صوتيِّةً تُكتب بالحرف الروماني(٥) .

---

(١) ينظر علم الأصوات ص ٦٣٢، وتاريخ الكتابة ص ٣١ و ٨٣، واللغة لفندريس ص ٤٠٨ و ٤١٣، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٨ .

(٢) ينظر علم الأصوات ص ٦٣٣ وما بعدها، ودراسة الصوت اللغوي ص ٧٣ وما بعدها، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٩٨، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٦ .

(٣) ينظر في الألفبائية الصوتية : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٩٦ وما بعدها، وعلم الأصوات ص ٦٣٤ وما بعدها، ودراسة الصوت اللغوي ص ٧٣ وما بعدها .

(٤) ينظر دراسة الصوت اللغوي ص ٨٠، والألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني ص ١١ .

(٥) ينظر دراسة الصوت اللغوي ص ٨٠، وبحث (نحو ألفبائية صوتية عربية موحدة : اقتراحٌ لعلماء الصوتيات العــرب)، للدكتور عبد العزيز بن إبراهيم السويِّل، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة الملــك ســعود، مــج ١٣، ع ١ ص ٢٣١، والألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني ص ١١ .

ونادى باحثون عرب بوضع ألفبائية صوتية عربية، وبخاصة مع وجود علم اللغويات العربي الحديث ؛ لتُسَهِّل على الناس تعلُّم اللغة، سواء لأبنائها الصغار، أم لغيرهم ممن هم ليسوا من أبنائها، ولتُسَهِّل مهمَّة الدراسات اللغوية المكتوبة باللغة العربية(١) .

وأرى – من وجهة نظري – أن الكتابة بالألفبائية الصوتية ستوقعنا في مشكلتين :

الأولى : وجود كلمات في هذه اللغات تتفق في النطق وتختلف في الكتابة، فنجد مثلا في اللغة الإنجليزية كلمتي : write و right، وكلمتي : hair و here، وكلمتي : night، و knight، وغيرها، فيلزم كتابتها بطريقة واحدة ؛ مما يُحدث لَبْسًا فيها .

ويمكن تلافي هذه المشكلة بالإبقاء على الطريقة الأولى لكتابة هذه الكلمات المتشابهة في النطق والمختلفة في الكتابة ؛ لأنها ليست كثيرة، فلا تكون عائقا أمام تعلُّم هذه اللغة . ولأن كتابة هذه الكلمات وأمثالها بهذه الصورة إبقاءٌ على قواعد الكتابة المرتبطة بجذور التقاليد التاريخية والثقافية المحفوظة في كُتُب الشُّعُوب(٢) .

الثانية : عدم فهم الأجيال اللاحقة تراثَ الأجيال السابقة(٣) .

ويمكن علاج هذه المشكلة بإعادة كتابة التراث القديم وفق أسلوب الألفبائية الصوتية، وبخاصة مع انتشار الطباعة في هذا الزمن وتطوُّرها .

لكن هذا الأمر سيخلُقُ مشاكل اقتصادية ؛ لما يستلزمه من أموال طائلة، إما بسبب التعديل نفسه، أو بسبب إعادة كتابة التراث، ولا يخفى أن الشعوب بحاجة ماسَّة للأموال أكثر من حاجتها لتعديل الكتابة . إضافة إلى أن إعادة كتابة التراث العربي صعبة جدا ؛ نظرا لضخامته .

---

(١) ينظر بحث (نحو ألفبائية صوتية عربية موحدة : اقتراح لعلماء الصوتيات العرب)، للدكتور عبد العزيز بن إبراهيم السويل، مجلة كلية الآداب، مج ١٣، ع ١ ص ٢٣٢، وبحث (تصميم رموز حاسوبية لتمثِّل ألفبائية صوتية دولية تعتمد على الحرف العربي)، للدكتور منصور الغامدي، بحث منشور في مجلة جامعة الملك عبد العزيز : العلوم الهندسية، مج ١٦، ع ٢، ص ٢٩ .

(٢) ينظر تاريخ الكتابة ص ٣١ و ٨٣ .

(٣) ينظر مقدمة تاريخ الكتابة ص ٣١، وعلم الأصوات ص ٦٣٢، وفقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٠٠ .

يضاف إلى هذا أن الكتابة وفق الألفبائية الصوتية يستلزم من الإنسان أن يتعلَّم نظامين للكتابة : أحدهما لقراءة القديم، وثانيهما لقراءة الحديث المكتوب بالألفبائية الصوتية، وهذا يتطلَّب جُهْدًا ومالاً[1] .

ولهذا رأى العلماء القناعة بالإبقاء على الكتابة الإملائية على ما فيها من نقص، وأنه بقليلٍ من التعليم والخبرة يستطيع المرء أن يستوعب نظام الكتابة في لغته، ويستطيع استخدامها بسهولة . على أن النظام الكتابي للغة العربية خيرُ نظامٍ كتابيٍّ يُمثِّل النطق تمثيلا حقيقيًّا[2] .

(١) ينظر علم الأصوات ص ٦٣٢، واللغة لفندريس ص ٤١٣، وفقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٠٠ .

(٢) ينظر علم الأصوات ص ٦٣٣، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٩٨، وأم اللغات لسعيد بيومي ص ٤٢، وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٢٧٧ .

وفي ختام هذا البحث يُمْكِنُنَا استخلاص أهم نتائجه، وهي :

١ ــ كانت الحاجةُ الماسَّةُ للكتابة داعيةً لنشوئها في عصر متقدم من حياة الإنسان، إلا أن عدم وجود دليل صريح يُحدِّد تاريخِ نشأتها جعل الوقوف على تاريخٍ دقيقٍ لنشأتها أمرا صعبا .

٢ ــ سعى الإنسان في تطوير الكتابة منذ اختراعها، ولا يزال يسعى ؛ نظرا لأهمية الكتابة في تطوُّر حياة البشر .

٣ ــ أن الكتابة صناعة من الصنائع، استخدمتها كل شعوب الأرض عندما استقرت وعرفت العمران(١) ؛ ولذا رأيناها نشأت في أطوارها الأولى – أي : الصورية – في ثلاثة مراكز حضارية، هي : مصر، والعراق، والصين(٢) .

٤ ــ مرت الكتابة بخمسة أطوار، هي : كتابة الفكرة بصورة، ثم كتابة الكلمة بصورة، ثم الكتابة الرمزية، ثم الكتابة المقطعية، ثم الكتابة بالرمز الصوتي . وكان الدافع في تغيير هذه الأطوار هو حاجة الإنسان للكتابة، وسعيُهُ لتسهيلها وجعلِهَا وافية في نقل خطابه الشفهيِّ إلى الكتابي .

٥ ــ لا تزال بعضُ النظم الكتابية القديمة رغم بدائيَّتها باقيةً إلى الآن، مثل : الكتابة الصورية في الصين، والصورية المقطعية في اليابان على الرغم من التقدُّم العلمي لهذين الشعبين . ومثل : الكتابة بالفكرة في علامات المرور واللوحات الإرشادية المستعملة الآن، والكتابة الرمزية في الرموز الدالة على أصحاب المهن، ومثل : علامات التقييد المستعملة حاليا في اللغات الأوربية .

٦ ــ قصور اللغة المكتوبة عن تمثيل اللغة المنطوقة تمثيلا تامًّا كما هو موجود في أغلب الأبجديات يقف عائقا أمام تعلُّم اللغة ؛ ولذا نادى بعض علماء اللغة المعاصرين بكتابة اللغات بالألفبائية الصوتية .

---

(١) ينظر مقدمة ابن خلدون ٨٧٩/٢ .

(٢) ينظر علم الأصوات ص ٦٣٠ .

٧ ــ أحْجَمَ الناسُ منذ القِدَم عن تعديل أبجدياتهم الكتابية ؛ لعدم وفاء تعديل الأبجدية بحاجة النطق الفعلية للُّغة، ولما يستلزمه تعديلُ الأبجدية من مشاكل اقتصادية وثقافية تؤدي إلى فَصْل الأجيال اللاحقة عن تراث الأجيال السابقة .

المصادر والمراجع:

١ - الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ .

٢ - أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦ م .

٣ - أدب الكاتب، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق الدكتور محمد الدالي، نشر مؤسسة الرسالة .

٤ - أدب الكُتَّاب، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، عُنِيَ بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجة الأثري، نشر المطبعة السلفية بمصر والمكتبة العربية ببغداد، عام النشر ١٤٣١ ه .

٥ - أسس علم اللغة العربية، للدكتور محمود فهمي حجازي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣ م .

٦ - الألفبائية الصوتية الدولية والحرف الروماني، للدكتور منصور بن محمد الغامدي، مركز علوم وتقنية الأصوات، مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، الرياض، ١٤٢٤ ه .

٧ - أم اللغات، دراسة في خصائص اللغة العربية والنهوض بها، لسعيد أحمد بيومي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ ه، مصر .

٨ - الأوجاريتيُّون والفينيقيُّون : مدخل تاريخي، للدكتور سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نُشر في مجلة الجمعية التاريخية السعودية، الإصدار السابع عشر، الرياض، ١٤٢٥ ه .

٩ - البحر المحيط، لأثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، الجزء الحادي والعشرون، تحقيق محمد رضوان عرقسوسي ومحمد معتز كريم الدين ومحمد أنس الخن، دار الرسالة العالمية، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥ م .

١٠ - تاريخ الكِتَاب، للدكتور الكسندر ستيبتشفيتش، ترجمة الدكتور محمد الأرناءوط، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، طباعة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣ م .

١١ - تاريخ الكتابة، ليوهانس فريدريش، ترجمة سليمان أحمد الضاهر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ م .

١٢ - تاريخ الكتابة التاريخية، لهاري إلمر بارنز، ترجمة الدكتور محمد عبدالرحمن برج، ومراجعة الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ م .
١٣ - تاريخ اللغات السامية، للدكتور إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٨ ه .
١٤ - التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ .
١٥ - تصميم رموز حاسوبية لتمثِّل ألفبائية صوتية دولية تعتمد على الحرف العربي، للدكتور منصور الغامدي، بحث منشور في مجلة جامعة الملك عبد العزيز : العلوم الهندسية، المجلد السادس عشر، العدد الثاني، ١٤٢٧ ه .
١٦ - تَعَلَّم الهيروغليفية : لغة مصر القديمة وأصل الخطوط العالمية، للدكتور محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م .
١٧ - الحروف الأولى : دراسة في تاريخ الكتابة، للدكتور خلف طايع، منتدى سور الأزبكية، ٢٠٠٧ م .
١٨ - حضارة الكتابة، للدكتور سعيد فايز إبراهيم السعيد وعبد الله بن محمد المنيف، صدر هذا الكتاب على هامش ندوة الإسلام وحوار الحضارات، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤٢٣ ه .
١٩ - دراسات في علم الآثار واللغات القديمة، للدكتور نائل حنون، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ ه .
٢٠ - دراسات في فقه اللغة، للدكتور صبحي إبراهيم الصالح، نشر دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩ م .
٢١ - دراسة الصوت اللغوي، للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٨ ه .
٢٢ - شواذ ابن خالويه = مختصرٌ في شواذ القرآن من كتاب البديع، لابن خالويه، عني بنشره ج برجستراسر، مكتبة المتنبي، القاهرة .
٢٣ - الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق أحمد صقر، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي .

٢٤ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لأحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .
٢٥ - صحيح ابن حبان = الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي الدارمي البُستي، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ .
٢٦ - العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ .
٢٧ - علم الأصوات، للدكتور كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠ م .
٢٨ - علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، للدكتور محمود السعران، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ، القاهرة، ١٩٩٧ م .
٢٩ - علم اللغة، للدكتور علي عبدالواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٤ م .
٣٠ - عمدة الكُتَّاب، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، نشر دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ .
٣١ - الفريد في إعراب القرآن المجيد، للمنتجب حسين بن أبي العز الهمداني، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح، نشر دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ .
٣٢ - فقه اللغة، للدكتور علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤ م .
٣٣ - قواعد اللغة السومرية، للدكتور فوزي رشيد، دار صفحات للدراسة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ م .
٣٤ - الكتابات واللغات القديمة، للدكتور علي صقر أحمد، جامعة البعث، سوريا .
٣٥ - الكتابة المسمارية، للدكتور عامر سليمان، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، نشر جامعة الموصل، ١٤٢٠ ه .

٣٦ – الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية، لسليمان بن عبد الرحمن بن محمد الذييب، الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٧ ه .
٣٧ – الكتابة في العراق القديم، لإيمان عمر عباس، بغداد .
٣٨ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، باعتناء مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ .
٣٩ – اللغة، لجوزيف فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، تقديم فاطمة خليل، إصدار المركز القومي للترجمة، القاهرة، طباعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠١٤ م .
٤٠ – اللغة السومرية، لحيدر عقيل عبد، بغداد، ٢٠١٥ م .
٤١ – مدخل إلى علم اللغة، للدكتور محمود فهمي حجازي، نشر دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٧ م .